وصف العاصفة

عند امرىء القيس وعند فرجيل

لقد نعلم جميعاً اليوم بأنه لا بدّ لنا في درسنا الأدب العربي من المقارنة بين هذا الأدب وآداب أخرى إذا ما شئنا أن نتبين قيمته الانسانية ومكانته في العالم. إلاّ أننا بتنا غافلين عن أن هذه المقارنة لا تجوز بين أدبنا وبين الآداب الغربية الحديثة، وإنما الرأي في الأمر أن تكون هذه المقارنة بينه وبين الآداب العالمية القديمة ولا سيما الأدبين اليوناني واللاتيني لسعة انتشارهما في العالم المتمدن. ولقد وفر لهما هذا الانتشار الواسع، الجانب القوي من الروعة والفن الذي انتهيا اليه في تعبيرهما عن العواطف الانسانية وتصويرهما لها حتى أن أمم الغرب جميعاً اتخذتهما كمثل أعلى تقيس الى آثارهما كل أثر كتابي أو شفهي خُصّ الشهرة الأدبية والخلود.

ولقد نشعر في أثناء تطبيقنا هذه الفكرة عملياً واتخاذنا آثارنا الأدبية أثراً أثراً ومقارنتنا اياها مع بعض ما خلف لنا اليونان أو اللاتين من تراث أدبي، أن أدبنا العربي القديم هذا، الذي يظنه البعض بعيداً عنا، قريباً من حياتنا، يلائم كل الملاءمة تلك الحياة التي نعيشها في عصرنا العشرين، إذ أن هذا الأدب في كثير من مقطوعاته، لم يقصر دون الآداب الغربية القديمة في تعبيره عن العواطف التي قد تشغل صدر كل انسان في أثناء وجوده في مواقف ومشاهد ممتازة يعدها من ذرى حياته العاطفية الوجدانية رقياً.

وبين الآثار العربية القديمة التي نراها جديرة بمثل هذه المقارنة، مقطوعة لامرىء القيس يذكرها لنا الرواة في آخر معلقته وتتناقلها كتب الأدب بالعنوان « وصف البرق والمطر والسيل ». ونحن نوردها هنا، معتمدين على نسخة « أهلوارد »[1] التي نراها أصح من

(1) Paris 1913 — W. Ahlwardt — "The Divans of the six ancient Arabic Poets" ص ١٥٠

غيرها من حيث البحث العلمي ، وهي في الوقت نفسه ، أشد ملاءمة من سواها لتطور العاصفة بمقتضى العوامل الطبيعية .

أصاحِ ترى برقاً أريكَ وميضهُ ... كلمع اليدين في حبيٍّ مكللِ
يضيءُ سناهُ ، أو مصابيحِ راهبٍ ... أمالَ السليطَ بالذبالِ المفتّلِ
قعدتُ لهُ وصُحبتي بينَ ضارجٍ ... وبينَ العُذيبِ ، بعدَ ما متأملي
علا قطناً ، بالشيمِ ، أيمنُ صوبهِ ... وأيسرهُ على الستارِ فيذبلِ
فأضحى يسحُّ الماءَ حولَ كُتيفةٍ ... يكبُّ على الأذقانِ دوحَ الكنهبلِ
ومرَّ على القنانِ من نفيانهِ ... فأنزلَ منه العصمَ من كلِّ منزلِ
وتيماءَ لم يتركْ بها جذعَ نخلةٍ ... ولا أطماً إلا مشيداً بجندلِ
كأنَّ ثبيراً في عرانينِ وبلهِ ... كبيرُ أناسٍ في بجادٍ مزملِ
كأنَّ ذرى رأسِ المجيمرِ غدوةً ... من السيلِ والأغثاءِ فلكةُ مغزلِ
وألقى بصحراءِ الغبيطِ بعاعهُ ... نزولَ اليماني ذي العيابِ المحمّلِ
كأنَّ مكاكيَّ الجواءِ غديةً ... صُبحنَ سلافاً من رحيقٍ مفلفلِ
كأنَّ السباعَ فيه غرقى عشيةً ... بأرجائهِ القصوى أنابيشُ عنصلِ

هذا ونحن نرتضي هذه القطعة على النحو الذي نقلها به لنا الرواة — إلا أننا نلتمس من حسن الرأي والذوق الأدبي أن نوردها ونعلنها كوصف « عاصفة في مرتفعات نجد » (١) إذ يخلع هذا العنوان من الوحدة التأليفية على أبياتنا ، فتبدو هكذا هذه الأبيات محكمة التآلف بعضها مع بعض وتزداد بذلك رونقاً وفناً .

ثم قد يجد بعضهم في صعوبة الألفاظ وبعدها عن المألوف المأنوس ، وفي غرابة بعض التراكيب ، عائقاً دون تذوق هذه القطعة تذوقاً تاماً — إلا أن هناك وفرة كتب الأدب التي تشرح جميعها أبياتنا هذه شرحاً مستوفياً — فنقيض لهم أن يتجاوزوا هذا المانع

(١) ولقد سبق الى هذه الفكرة المستشرق الانجليزي « شارلس لايل » (Charles Lyall) في كتابه Translations of Ancient Arabian Poetry — (لندن) ١٩٣٠ — ص ١٠٣ — ١٠٦ ، وتبعه فيها مواطناه « نيكلسون » و « جب » في كتابيهما في الادب العربي .

الخارجي الشكلي الى عالم من الجمال لم يكن لهم عهد به من قبل ، إذ أنهم يدخلون في نفس الشاعر ويشاركونه عواطفه وشعوره ، ويغتبطون لصورة الفكر ويستخفون طرباً لهذه « الموسيقى الداخلية » التي يتدبر بها الفن العربي ، تطوّر انفعالات عاطفته إزاء انقلابات العاصفة ومراحلها .

فما رأيك من حيث التصوير بوصف وميض البرق في جوانب السحاب بحركة اليدين في سرعتها وخفتها أو بضوء مصباح السراج بعد ان يندلع إذ يميل الراهب الفتيل ليتشرّب الزيت. وما قولك بعنف صورة المكاكي وسنيرها وبما يكني الشاعر عن انقطاع المطر وفرح الطبيعة أثر ذلك . وأرددك ثانياً الى الروعة الفنية التي يولدها امرؤ القيس في نفس القارىء أو السامع من أنه يجعل هذه الصورة اللطيفة الى جانب صورة قوية صاخبة تمثل ضخامة العوامل الطبيعية وبطشها في أثناء العاصفة . ولذلك نرى ان الشعر العاشر هو قربان متطوعتنا من الناحية التصويرية — ... وهو الى ذلك قمتها من ناحية الموسيقى الداخلية . وما لك لكي توافقنا على ذلك إلاّ أن ترجع الى قراءة الأبيات من الشعر الثالث وتضخم الصوت شيئاً فشيئاً حتى تنتهي الى البيت العاشر الآنف الذكر فتعطي لحروف صدر هذا البيت من « قاف » « وصاد » « وضاد » « وطاء » « وعين » حقها من حيث القيمة الصوتية فتمثل بذلك لسمعك هدير دوي العاصفة المقبلة نحوك ، ثم انفجار السحابة وإلقاءها ثقلها من المطر . ثم قف بعد ذلك لحظة نكل بعدها الى ذوقك الفني ، وانتقل بعد ذلك الى البيت الحادي عشر : ألا تشعر بنفسك حينئذ خارجاً من موجة موسيقية أولى ، موجة العنف والشدة والانقباض ، ومدفوعاً بموجة موسيقية أخرى ، موجة الانشراح والانبساط تحملك من غير وعي منك وتدخلك في حركتها اللطيفة الرشيقة ، فيجعلك كل ذلك تدرك حسّياً بقطعك المادي والروحي ، فرح الطبيعة بعد انقطاع المطر وزوال العاصفة ؟

وهناك مزايا أخرى لا نقف عندها ، بل نتركها لذوق القارىء إذ أن غايتنا هنا ليست درس متطوعتنا بحدّ ذاتها وتحليلها تحليلاً أدبيّاً دقيقاً ، وإنما أشرنا الى بعض مواطن الفن والجمال فيها محاولة منا أن نساعد القارىء على مقارنتها مع متطوعة لاتينية في وصف العاصفة أيضاً . وقد أخذنا هذه المقطوعة عن « فرجيل » أحد شعراء اللاتين العظام .

ولربما كان أعظمهم ، وهي منتزعة من مؤلفه المشهور « القرويات » Géorgiques

يفتتح « فرجيل » الباب الأول من « قروياته » بالدعاء « لميسناز » الذي أحسن إليه ، واتخذه في كنفه ، ثم يطلب من الآلهة ، ولا سيما الحقلية منها ، أن تعضده في عمله الأدبي ثم يثني بحياة الحقل والقرى وأصالتها وأشغالها من حراثة وزرع ؛ ولا بد لكل ذلك من تعب وجهد وعناء — فيدفع ذكر هذا شاعرنا الى الحديث عن العصر الذهبي وسعادة الانسان إذ ذاك . ثم ينتقل الى الكلام عن أدوات الفلاحة التي يستخدمها الفلاح ، ثم عن دلائل خصب التربة وعن خزن البذر وإعداده ، ثم عن الزمن الصالح للزراعة . ثم عن أمور تربية الدواجن ، وعما يجمل بالقروي أن ينصرف إليه من عمل في الصيف وفي الشتاء . وهكذا ينتهي به الأمر الى كيفية تدبير الوقت في الخريف والربيع أيام تجتاح العاصفة الحواضر والقرى ، فيلنشد :

ما عسى أن أقول عن عواصف الخريف وأنوائه .
وعما ينبغي ، إذ يقصر النهار ويخف الحر ،
أن يكون المرء حريصاً عليه . أو[1] عندما يتقبل الربيع المطير ،
وتكون الحقول قد استوى فيها زرعها على سوقه ،
وتكون الحبوب الحليبية في السنبلة الخضراء قد نمت.
كم من مرة في حين كان يدعو القروي الحصادين إلى حقوله الصفر ،
ويكون قد بادر في حصاده الزرع القائم على سوقه القصم ،
التحمت المعارك ، على جميع أنواعها ، بين الأرياح ! هذا ما رأيت .
وكانت هذه الأرياح تستأصل الزرع المثقل ، من أعماق جذوره
وتدفع به بعيداً ، ثم بأنصار قائم ،
كانت تأتي العاصفة ، فتقل العرق والتبن المتطاير ، وتذهب به .
وكم من مرة ، في الشتاء ، تلبدت المياه شآبيب ،

(١) لقد بالغت في الايجاز اخلاصاً للنص اللاتيني ، ومعنى الجملة كما يلي : أو (ماذا أقول عما ينبغي أن يكون المرء حريصاً عليه) عندما يقبل الربيع الماطر .

وحصن في جوفه ، العاصفة الهائلة تصحبها الأمطار الدكن ،
ما تلبث في حل من الغيوم ، وما هي إلا والسحاب المتعالي ، يهبط على الأرض مدراراً
وسيل عظيم يغمر السنابل الضاحكة ، فيجني عمل البقر ،
ويجرها فتترع الخنادق ، وتفور الأنهار مرتفعة عن مجراها العميق
لجبه ، ويرتج في مضايقه المضطربة ، البحر
والآب (١) في وسط الغيوم السود ، بيده اليمنى الساطعة
يشرع الصاعقة ، ومن وقعها في أرجائها الواسعة ،
تهتز الأرض ، وتولي الوحوش هاربة ، وقلوب بني الإنسان ،
في جميع الأقطار يعتريها خوف وضيع .
أما هو (٢) فلا يزال يرمي بسهمه الملتهب ، أو الآتوس ، أو الرودوب أو جبال
السيرونيا الشاهقة (٣)
فتتضاعف الرياح ، ويتكاثف الوابل
ومن الزمهرير العنيف ، فالغابات تدوي تارةً ، وتارةً الشواطئ ..

* * *

وبعد أن يهدي الشاعر على ترويه النصائح ، ويوصيه خيراً بالورع والتقوى والتباع للآلهة ولا سيما مارس ربة الحصاد وسائر الأعمال الحقلية ، يواصل في الانشاد ، عجباً ولأن انقطاع المطر وانتهاء العاصفة ، فيقول :

ولا تعود ، فتنشر للشمس النائرة ، أجنحتها ،

---

(١) أي « جوبيتار » رب الآلهة والبشر . واسمه عند اليونان « زفس » كما هو معلوم .
(٢) أي « جوبيتار » دائماً .
(٣) كل هذه الجبال في بلاد اليونان ، أو مقدونيا . جبل « آتوس » Athos في مقدونيا . وجبل رودوب (Rhodope) في « الثراس » تراقيا (Thrace) وجبال « السيرونيا » (Mts. Ceraunia) في أقليم الابير (L'Epire) والأرجح عنده أن فرجيل يقصد المعروفة اليوم بجبال (Della Chimera) الشاعر اليوناني تيوكريت (Théocrite) المعروف أيضاً بقروياته وحدائه (Bucoliques) راجع هذه الأسماء في مؤلفات الشاعر اليوناني ٢٧٤٧ في أي طبعة كانت.

طيور الألسيون العزيزة [١] لدى ثاتيس [٢]
وأما الغيوم، فتمعن شيئاً فشيئاً الى أسافل الأرض وتضطجع على الحقول.
وعلى رؤوس السطوح، حيث يتوقع غروب الشمس،
عبثاً يحاول طير اليوم تحيته القبلي.
يطير عالياً في الهواء الجلي، نيسوس، [٣]
وبالشمرة الحمراء، التي اجتزتها، تؤخذ سبيلاً.
وأينما ولت منه، تشق الأثير الخفيف بأجنحتها.
فنيسوس أبداً في أثرها، لدوداً، متحرّشاً، يصفق بجناحيه في الهواء.
وكيفما اتجه نيسوس في الهواء،
فهي تخف في هربها، وتشق بأجنحتها الأثير.
حينئذٍ تضغط الغربان على حلاقيمها، وتتشمر بصوت مجلو،
ترسله ثلاثاً أو أربعاً. وغالباً، في مواقعها العالية،
ولا أدري أي لذة غريبة تحدث فيها هذا الفرح،
هي تعبث فيما بينها تحت الأوراق. يلذ لها، بعد أن دفعت الأمطار،
أن تعود الى مشاهدة صغارها، وأعشاشها الحلوة.

---

(١) طير وهمي، ورد إسمه في الاساطير اليونانية، كان في زعمهم، لا يجعل عشه الا على سطح بحر هادئ، وكانوا الى ذلك يتفاءلون به

(٢) إلهة بحرية، وهي أم «اخيلوس» بطل الالياذة المشهور.

(٣) أصل هذه الصورة أسطورة يونانية خبرها ما يلي: «كان في رأس نيسوس (Nisus) ملك «ميغارة» (Megare) مدينة في اليونان، شعرة ارجوانية اللون، وكان مصير مملكته مرتبطاً بهذه الشعرة. فحدث أن مينوس (Minos)، ملك اقريطش (Crète) حاصر مدينة (Megare) وكانت إسقولا (Scylla) بنت «نيسوس» تحب «مينوس»، فاجتزت الشعرة الارجوانية من رأس أبيها وقيضت هكذا النصر لحبيبها. ومن هذا الحين، حول نيسوس الى باشق وحولت إسقولا الى سماناة، وترى الوالد أبداً في اثر ابنته ليقتص منها ويأتيها على سوء عملها.

أنا بعيد من الزعم بأن قد أنعم عليها بشيء من روح الجن ، أو بأن قد منت عليها
الأقدار بحكمة فوق طبيعتها ،

إلا أنه ، عندما تتنحى العاصفة وغيوم السماء المتناقلة

وتعدل الى سبيل آخر ، وعندما يعمد جوبيتار الندى الى الأدواح

فيضم الى بعضه ما كان من الغيوم منبسطاً

وما كان منها ملتماً يبسطه ،

تتحول عند ذلك حالات الأرواح ، وأما القلوب ،

فهي تشعر باختلاجات غير التي كانت فيها أثناء كان الريح يدفع الغيوم ،

فمن ثم أهازيج الطيور في الحقول ،

والقطعان الفرحة والغربان المرحة في نعابها .

هذه ترجمة قطعة من الأدب اللاتيني يعرفها شباب الغرب ويراجعونها في مطاوي كتبهم بعد أن ترجموا بها وبغيرها من النصوص القديمة ، أثناء دروسهم الأدبية ، على الأسلوب الصحيح السليم في الانشاء وعلى الصور والمواطف السديدة المحكمة في الرأي والتفكير . جعلوناها متعة للنفس وروحاً للقلب . ونحن ننشرها اليوم في الشباب العربي اذكاء لعلم وخدمة للأدب . ولقد حاولنا ما وسعنا أن نجاري في الترجمة النص اللاتيني بكل أمانة وإخلاص حتى النقل بيتاً بيتاً . واجتهدنا أثناء عملنا هذا ، أن نتجرد عن ذوقنا العربي وعن أسلوبنا العربي وعن صورنا العربية ، لكي تبرز طاقة « فرجيل » والصور التي اتخذتها قوالب لها ، أمام مشهد العاصفة ، على طابعها الخاص لا يشوبها عنصر قط غريب عنها . وذلك قصداً منا أن ندع القارىء يجعل نفسه أمام نفس الشاعر اللاتيني معتمداً عليه وحده ، فيستنتج ما يسعه وما يشاء أن يستنتج من المقارنة التي لا مناص له من أن يقيمها بين المقطوعتين . وأما نحن ، وإن كنا نعترف للقطعة اللاتينية بالتفوق في بعض النواحي ، فإننا لا نرى أثرنا العربي قاصراً دونها من حيث وصف الواقع وابتكار الصور والاتجاه العاطفي والاندفاع الشعري

مدرسة الآباء العازاريين — دمشق الأب فريد جبر العازاري